

للدُّب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ - ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

- ٢٢ -

الرافعي وعبد الله عفيفي :

لم يكن الأستاذ عبد الله عفيفي خصماً للرافعي على الحقيقة ، ولا أحسب أن أحدهما كان يرضيه أن يكون بينهما ما كان ولا سى إليه ؛ ولكن الأستاذ عفيفي في مكانه من ديوان جلالة الملك ، وفي موضعه عند الإبراهيم باشا ، قد دارت به المقادير دورتها حتى وقفته مع الرافعي وجهاً لوجه ، وجعلته بالموضع الذي لا يستطيع واحد منهما فيه أن يتجاهل أنه أمام خصم يحاول أن يظفر به . ومن هنا نشأت الخصومة بين الرافعي وعبد الله عفيفي على أن هذه الخصومة بينهما تختلف عن سائر الخصومات التي نشبت بين الرافعي وأدباء عصره ، فهنا لم تنشأ الخصومة إلا للتراحم على رتبة « شاعر الأمير » ؛ على حين كانت أكثر خصومات الرافعي ذيادة عن الدين وحفاظاً عن لغة القرآن ، فما كنت ترى فيها إلا التراشق بالفاظ الكفر والزيف والروق والالحاد ؛ أما هنا فكانت المعركة تدور وما فيها إلا التهمة بالغفلة وفساد الذوق وضعف الرأي وقلة المعرفة ... وما بدت من أن يكون في نقد الرافعي أحد هذين اللونين : الاتهام بالزيف ، أو الاتهام بالغفلة ، ولا ثالث لهما . ومن هنا فقط نستطيع أن نزعج أن الرافعي لم يكن موقفاً في النقد ، مع أهليته واستعداده وإحاطته الواسعة وإحساسه الدقيق ؛ إذ كان أول ما ينبغي أن يتصف به الناقد هو عفة اللسان والاقتصاد في التهمة وضبط النفس ...

ونمت شيء آخر يفرق بين هذه الخصومة وبين سائر الخصومات : هو أن هذه المعركة كانت إيجابية من طرف واحد ، على حين ظل الطرف الثاني صامتاً قارئاً في موضعه ، لم ينبس بكلمة ولم تدر منه بادرة مشهودة للدفاع ...

كتب الرافعي مقالات ثلاثاً بعنوان « على السَّفود » في

نقد ثلاث قصائد أنشأها الأستاذ عبد الله عفيفي في مدح الملك — والسفود هو الحديد التي يُشوى عليها اللحم — وهو عنوان له دلالاته ، وفيه إشارة والرمز إلى ماحوت هذه المقالات من الأساليب اللاذعة والنقد الحامى . وإذا لم يكن توقيع الرافعي في ذيل هذه المقالات ولا كان يريد أن يُعرف أنه كاتبها — فإنه خرج عن مألوفه في الكتابة وفي غط الكلام ، فاسترسل ماشاء كأنه يتحدث في مجلسه إلى جماعة من خاصته : لا يمتنع الأسلوب ولا جودة العبارة ولا عريية اللفظ ، بقدر ما يمتنع أن يتأذى معناه إلى قارئه في أى أسلوب وبأية عبارة ؛ فكثير الحشو في هذه المقالات من الكلمات العامية والكلمات الدائمة والأمثال الشعبية ، ولكنه إلى ذلك لم يستطع أن يتخلص من كلِّ لوازمه في النقد والكتابة ، فبقيت له خفة الظل وحلاوة اللفظ وقسوة النقد ، إلى بعض عبارات في أسلوبه تتم عليه وتكشف عن سره .

ولم يذكر الرافعي حين أنشأ هذه المقالات أنه يتناول بهذا النقد شاعراً من شعراء القصر له حظوة عند رئيس الدewan الملكي ، وأن هذا الشعر الذي يفرجه ويكشف عن عيبه إنما أنشأه ناظمه في مدح الملك . أو لعل الرافعي كان يذكر ذلك ولكنه يحسب نفسه بنجوة من التهمة لأنه لم يوقع بإمضائه على هذه المقالات ؛ فلم يتجرجع مما كتب ، وأتى القول على سجيته في صراحة وعنف وقسوة ، ولم يصطنع الأدب اللائق وهو يتحدث عما ينبغي أن يكون عليه الشعر الذي يقال في مدح الملك وما لا ينبغي أن يقال ؛ فجاء في بعض كلامه عبارات لا يسيغها الذوق الأدبي العام عند ما يتصل موضوع القول بالملك الحلى الذي يحكم ويدين له الجميع بالولاء . وكأنما ركبت طبيعة غير طبيعته خبيثاً إليه أنه يكتب في نقد شاعر من الماضين يمدح ملكاً من ملوك التاريخ ، فلم ينظر إلى غير الاعتبار الأدبي الخالص من دون ما ينبغي أن يراعى من التقاليد واللباقة السياسية عند الحديث عن الملوك وانتهت أولى هذه المقالات إلى القصر ، فالت الأفواه إلى الآذان ، وتهامس القراء همساً غير خفي ، ثم جهروا يتساءلون : من يكون هذا الكاتب ؟ ولكن أحداً منهم لم يفتن إليه ولم يعرف الجواب ، وأنفذوا دسيساً إلى الأستاذ إسماعيل مظهر صاحب المصور يسأله فلم يظفر منه بجواب

ونشر المقال الثاني والثالث ، فلم يلبث أن انكشف السر؛

ونم الرافى على نفسه بلسانه في مجالسه الخاصة ... أو نم عليه أسلوبه وطريقته في النقد

وجاءه سائل من القصر يسأله ويستوثق من صحة الخبر في أسلوب السيامى البارع : « ... وكيف تأذن لنفسك أن تقول ما قلت في شاعر من شعراء الملك، وأن تكتب عنه بهذا الأسلوب ؟ أفتتفق مع الولاء لصاحب العرش أن تكتب ما كتبت لتصرف الشعراء المخلصين عن ساحة الملك ... ؟ أم تريد ألا ينطق أحد بالثناء على صاحب التاج وألا يكون اسمه على لسان شاعر ؟ أم هي دسيسة تصطنع الأدب لتفض المخلصين من رعيته عن بابه ... ؟ »

وغص الرافى بريقه ، وتبين الهاوية تحت قدميه يوشك أن يتردى فيها بحيلة بارعة ، وأحس الإبراشى باشا من ورائه يحاول أن يدفعه بمنف ليتنقم لكبريائه التى مسها الرافى بمجانيته منذ بضعة أشهر ...

وحاول النجاة بنفسه من هذه المكيدة البتية ، فلم يجد له وسيلة إلا الصمت فأوى إليه . وانقطع ما بينه وبين القصر من صلات ، إلا الصلة العامة التى بين الملك وبين كل فرد من رعيته . وكان أخوف ما يخاف الرافى أن تكون خاتمة ذلك هى انقطاع المعونة الملكية عن ولده الذى يدرس الطب فى جامعة ليون على نفقة الملك ؛ ولكن ذلك لم يكن إلا بعد هذه الحادثة بأربع سنين (فى سنة ١٩٣٤) لسبب آخر ، ولم يكن باقياً بين الدكتور الرافى وبين الإجازة النهائية غير بضعة أشهر كما تقدم القول

لقد كثر ما استغلَّ خصومُ الرافى السياسةَ لينالوا منه . ولقد كثر ما اتهموه من أنه من أدوات الإبراشى باشا فى محاربة سلطة الأمة ، وأنه صنيعته ومولاه ؛ على حين كان هذا الموقف هو كل ما بين الرافى والإبراشى باشا من صلات الود والمواالة ؛ فما انقطعت صلة الرافى بالقصر إلا فى عهد الإبراشى ، وما كان معه يوماً على صفاء . على أنه كان تلميذاً معه فى مدرسة المنصورة الابتدائية فيما أذكر ...

ولقد كتب كاتب من خصوم الرافى غداة دالت دولة الإبراشى ، فصلاً مؤثراً ... بعبارات بليغة ... فى صحيفة من صحف الشعب ، يصف جنابة الإبراشى باشا على الأدب ؛ وكان من رايته على ذلك أنه اصطنع الرافى ليخارب بقلمه ولسانه سلطة

الأمة ... وقرأت هذه المقالة مع الرافى ، ونظرت إليه فإذا هو يتسم ابتسامة مرّة ، ثم قال : « هذا أديب يتحدث عن جنابة السياسة على الأدب ... أرايت ... صدق ! لقد جنت السياسة على الأدب ^(١) »

لم يكن لهذه المقالات الثلاث التى كتبها الرافى عن الأستاذ عبد الله عفيفى صدى فى غير هذه الدائرة المحدودة ؛ على أنها أنشأت بينهما خصومة صامتة ظلت مع الرافى إلى آخر أيامه ، وظلت مع الأستاذ عفيفى فى أحاديثه الخاصة إلى أصدقائه ، وإلى طلابه فى كلية اللغة العربية بالأزهر ...

فلما مات المرحوم شوقي بك فى خريف سنة ١٩٣٢ ، كتب الرافى عنه مقاله المشهور فى مجلة القنطرة ، وذكر فيها ذكر فيه أن شوقي بك لو كان مصرياً خالصاً المصرى لما تهيأت له الأسباب النفسية التى بلغت به مبلغه فى الشعر ؛ لأن الطبيعة المصرية لا تساعد على إنضاج المواهب الشعرية ، ولا تعين على إبراز الشاعرية الكامنة فى كل نفس

هو رأى أبداه فيها أبدى من رأى ، لم يقصد به التعريض بأحد أو الخط من مقداره . وقد يكون رأياً إلى الخطأ أو إلى الصواب ، وقد يتكافأ فيه كفتا الخطأ والصواب ، ولكنه رأى أبداه الرافى مجرداً من الهوى ، لا يعنى به إلا أن يستوفى عناصر بحثه . ولكن خصومه تناولوه على ألوان وفتون

أما طائفة فالت به إلى السياسة ، وقال قائلهم : هذا رجل ليس منا ، يريد أن يتكر فضل مصر عليه وعلى آله ، فيتهمها بالعدم وركود الذهن وجود الماطفة فيجرحها من الشعراء ... ومضى فى دعواه . ذلك سلامه موسى ...

وأما ثانية فقالت : وهذا قول بعيننا به نحن الشعراء المصريين ليجردنا من الشاعرية فى قاعدة عامة لا تستثنى أحداً إلا من انحدر إلى مصر وفى أعراقه دم غريب ... وبضت هذه الطائفة تنقض دعواه وتفسه رأيه بما تسوق من الأمثال وتذكر من أسامى الشعراء المصريين

وانتفى الأستاذ عبد الله عفيفى قلمه ليكتب فى (البلاغ)

(١) ستحدث عن هذا الموضوع حديثاً أكثر صراحة فى كتابنا : « المؤثرات السياسية فى جيل من الأدباء » الذى نعدّه للنشر بعد الفراغ من هذه المقالات إن شاء الله

أناشيد صوفية

جيتانجالي

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

— ٨٩ —

في اليوم الذي يطرق الموت بابك ، ما ذا تقدم إليه ؟
آه ، سأضع أمامه كأس حياتي المترعة لكيلا يرتد صفر اليدين
سأقدم له كل ما يحلو من ثمار أيام الحريف وليالي الصيف ،
وكل ما كسبت والنقطت في حياتي المليئة بالجد ... سأقدمها كلها
إليه عند آخر لحظة من لحظات حياتي ... حين يطرق الموت بابي

— ٩١ —

أيها الموت ، يا من هو آخر أمل في الحياة ، تعال واحمس
في أذني !
الأيام تمر وأنا أرقب لقياك ؛ فن أملك أنشأت في حياتي
والسرور والألم معاً

أنا ، وكل ما أملك ، وكل ما أملك ، وكل ما أملك ... كل
أولئك يندفع إليك في أعماق الخفاء . إنني أبتني النظرة الأخيرة
من عينيك ثم لتكن حياتي شيئاً تملكه أنت إلى الأبد
لقد صفت الزهور ، والأكاليل تنتظر العروس . وبعد
المرس ستقلب العروس من دارها لتلقى سيدها — في خلوة —
في هدأة الليل وسكونه

— ٩١ —

أنا أوقن بأن اليوم الذي أحرم فيه النظر إلى الأرض آت
لا ريب فيه ! وأن روحي ستفزع عني في صمت . فيسدل علي
عيني آخر ستار من أستارها

ولكن النجوم ما تزال تتألق في غسق الليل ، والصبح
ما يبرح يتنفس في حبه ، والساعات تمر جياشة كأنها الموج
المضطرب وفيها اللذة والألم في وقت معاً

وحين تترامى لي ساعتي الأخيرة يتصدع أمام عيني حجاب
الزمن . فأرى من خلال لمعات الموت ... أرى دنياك وفيها

مقالاته الأسبوعية بعنوان (مصر الشاعرة) يذكر فيها من
شعراء مصر في مختلف الأجيال منذ كانت مصر العربية ، ما يراه
رداً على دعوى الرافعي . ومضى في هذه المقالات بضعة أسابيع
يضرب على وتر واحد ، ثم ملّ هذه النغمة فراح يتصيد موضوعات
أخرى من مشاهداته وآرائه في الناس والحياة ؛ ولكن عنوان
(مصر الشاعرة) ظلّ على رأس هذه المقالات يبحث عن
موضوعه ... فكان حسب الأستاذ عفيفي في هذه المقالات أن
أنشأ هذا العنوان في الرد على الرافعي ... !

وقد ظل الرافعي إلى آخر عمره يذكر أيامه وهو شاعر الملك ،
ثم ما كان بينه وبين الأبراشي ، وبينه وبين عبد الله عفيفي . وما
كانت تظهر للأستاذ عفيفي في الصحف مدحة ملكية ، في موسم
من المواسم أو عيد من الأعياد ، حتى يتناولها الرافعي فيقرأها
إلى آخرها ، ثم يلتفت إلى جليسه فيقول : « ما ذا رأيت فيها من
شعر ومن معنى جديد ؟ » ثم يسترسل فيما تعود من المزاح والتندر
وقد ذكرت فيما قدمت من هذه المقالات أن الرافعي كان
يسمى كل جميلة من النساء « شاعرة » ، فمنهن كاللثني ، ومنهن
كالبحري ، ومنهن بشار بن برد ، ومنهن عبد الله عفيفي

فهذه الأخيرة عنده هي ذلك النوع (البلدي) من نساء
الطبقة الثالثة ، التي تبدو ملفوفة (محبوكة الأطراف) في ملابها
السوداء ، غضة بضّة ، تسهويك بجمال الجسم دون جمال المعنى ،
وفيها أنوثة الدم واللحم ولكنها جامدة الماطفة عقيم الخيال ...
معمدة إلى الأستاذ عبد الله عفيفي قائلاً أنا راوية أكتب
للتاريخ ، وما شهدت إلا جماعت ، وعلى تبعة الرواية وعلى غيري تبعة
الرأي . وللأستاذ عفيفي في نفسه رغم أولئك كل إجلال واحترام
« شبرا »

محمد سعيد الصبيح

إلى الأصدقاء : الأستاذ عبد الرحمن محمد عيسى مطروح ، والأديب
أحمد الصاوي فضل الله بأم درمان ، والسيدة أمينة العبدروس بواد مدني ،
والآنسة قدوى طنبلس ، والأديب السيد الصباحي بيور سعيد ، لأشكرهم ،
وستجمع هذه المقالات بعد تمامها إن شاء الله في كتاب ، وفلانة هي التي
عرفها كل من كتب إلى ؛ ولا أظن أن حفلة تأبين الرافعي ستقوم هذا العام
لأننا لم نعرف بعد كيف يكون الوفاء لأديبنا الراحلين . وعند الدكتور زكي
مبارك أن مقالة يكتبها ، هي حسب العربية في الوفاء لمن يموت من أدباء العربية ،
ولو كان هذا الراحل هو مصطفى صادق الرافعي ! يرحمه الله !